كائنات وحشرات تكلمت في القرآن والسنة

٢

الذئب يتكلم ويعترض

الطبعة الثانية

بقلم
محمود عدلى الشريف

تصميم الغلاف
شريف رضا

إخراج فنى
أمانى والى

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧- فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

عَنْ أَبى هُرَيْرَة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رسولَ الله (ﷺ) قالَ :

«بينمَا رجلٌ فِى غنمه إذْ عدَا الذئبُ فذهبَ منهَا بشـاة فطلبهُ حتَّى اسْـتنقذهَا منهُ فقالَ لهُ الذئبُ : هنَا اسْـتنقذتهَا منِّى فمنْ لهَا يوم السبعِ يوم لا راعى لهَا غيرِى فإِنِّى أُومنُ بهذَا أنَا وأَبُو بكرِ وَعُمر»[1].

(١) رواه البخارى برقم ٢١٥٦، ومسلم برقم ٤٤٠١، وأحمد برقم ٨٦٠٥، (صحيح) .

بينَ الجبالِ وَالصَّحـارى، كانَ يعيشُ ذئبٌ ضَارٍ، يترقبُ مَا يحبُّ أكلهُ منَ الغزْلان وَالظبَاء، وَينزلُ إلى السـهلِ ليشـربَ الماءَ، تعيشُ معهُ أسرتهُ منَ الذئاب، يلعبونَ فوقَ الحشَائش وَالأعشَاب، يفترسونَ مَا يشـتهونَ، ويأكلونَ مَا يصيدونَ، لاَ يُنافسهم غيرُهم فى المكان، وَلاَ يعيشُ بجوارهم أحدٌ فى أمانٍ حتَّى هجرَت الحيواناتُ العشبيةُ المكانَ، ونزحُوا إلى غيرهِ منَ الوديان. فتغيّرَ الحالُ عمَا كانَ، وضَاق بهمُ المكانُ، فقلمَّا يجدونَ فريسـةً يقتسمونهَا بينهُم، بعدَ أنْ كانَ لكلِّ واحدٍ منْهم فريستهُ الخاصّة، وقدْ لاَ يأكلُ منهَا إلاَّ القليل، وذلكَ جزَاء مَنِ افْترَى، وَنهَايةَ مَنْ طغَى .

أخذ الذئبُ المسكينُ، يبحثُ فى الأرضِ عنْ فريسَة يطعمُ منهَا أولادهُ، وَكلَّ يوم يخرجُ مُتَّسـعهُ، وَلاَ يجدُ منَ الطعام سـعةً، يعْوى صغارُه منَ الجوعِ، وإذَا سـمعَهُم حيوانٌ هـمّ بالرُّجوعِ. وظلَّ الأمرُ عَلى هَذا أيّام، فترك المكانَ بعضُهم ضَائقًا بهِ .

ومرضَ بعضُهم مرضًـا أقعدهُ عنِ البحْثِ عنْ صيد، وكانَ الذئبُ يَرَى أسـرتهُ ينفرطُ عقدُهَا، وينخرطُ منْ بيـنِ يديهِ حبّه بعدَ حبّة، فمنهُم منْ خرجَ ليطلبَ فريسَـة يقتاتُ منهَـا الجميعُ، فخرجَ ولمْ يعدْ حتَّى تاريخهُ .

ومنهُم الصِّغار مـنَ الجَرَاو الذينَ كانُوا يلعبـونَ ويمرحونَ بينَ يديْهِ، ممَا جعلَ بعْض أسرتهِ منَ الذئابِ، يتركونَ المكانَ كراهيةً فِى

إقْفَاره، وخُلوه منَ الطعام، ونزحُوا إلى مكانٍ آخرَ ابتغَاء الرزقِ فيه، دونَ أدنى تفكيرٍ فى مَصير منْ بقَى فى المكانِ، وظلَّ به ولمْ يتركهُ منْ أسرَتهم، وإنَّ ذهبتْ عنهُم قُوتهم فى اجتمَاعهم ووحْدتهم.

وهذَا خَطأ ! ! لأنَّ أىَّ نوعٍ منَ المخلُوقات أو الأجناسِ يفعلُ مثل مَا فعلَ بعضُ أسـرةِ الذئابِ، فإنَّ مصيرَهُم جميعًا الهلاكَ والضَّيَاع، والتشـرُّد والتمرُّد، وطمعَ غيرُهـم فيهم، وإنْ كانَ أقـلَّ منْهم قوةً وعـددًا بأضعَـافِ الأضعَاف، وعادةً مَا يحتـاجُ الذئابُ إلى بعضِهم البعْض، خاصّة إذَا كانتِ الفريسَـةُ التى يفترسُـونهَا منَ الحيوانات الذكية كالأرَانب البريّة، أو الكبيرَة كالحمَار الوَحْشـى، أو السريعَة كالغـزلان وَالظبَاء، أو الضَّخمة كفرسِ النهْر، ولكنْ مَا أدركتهُ أسـرةُ الذئـابِ مُؤَخرًا أنَّ الهلاكَ فى الطَّريق، قـادمٌ ليفترسَ الجميعَ، فَهمَّ كلُّ واحدٍ منْهم أنْ ينجوَ بنفسه.

وفهمَ الجميعُ أنَّ مَا حدثَ نتيجةً لظلْمهم وَبطْشـهم، فقدْ أكلُوا الكثيرَ وَالكثيرَ منهَا، وأحيانًا كانُوا يقتلونَ الفريسـةَ ولاَ يأكلونَ منهَا شيئًا، بلْ يتركوهَا للطيورِ الجارحَة لتخطفَ منهَا مَا تَشَاء .

ويبدُوا أنَّ صفحةَ السعَادة طُويت منْ حيَاة ذلكَ الذئبُ وَأسرتهُ، ومعَ ذلكَ يُصر عَلى البقاءِ فى الوادى وَالمعيشَـة فيه، وإنْ تفككتْ أُسرته أوْ قلَّ فيه رزقُهُ .

***

بيـنَ تلكَ الأحـدَاث كانَ يعيـشُ رَاعٍ للأغنَام منَ البـدوِ الرُحّلِ، الذيـنَ يذهبونَ هنَا وهناكَ، بحثًا عَنِ الكلأ وَالمَاء، لإطعَام أغنامهم وَسقائهَا، وَلاَ نشـاطَ لهُ فِى الحيَاة غير هذَا، كانَ هذا الرجلُ طويلُ القامَة، نشـيطُ الهمّة، طويلُ البَاعِ، قويُّ الذرَاعِ، شديدُ البأْسِ، ضخْمُ الرأسِ، عَازمُ البطشِ، بسيطُ العيشِ، لاَ يشغلهُ بعدُ مكانٍ، وَلا يهابُ منَ الدخُول فِى أرضِ مَلكٍ أَوْ سُلطانٍ، يرْعَى فِى أىِّ أرضٍ، ولا ينتهكُ حرمـةً ولا عرضًـا، إذا أدركهُ الليلُ باتَ، ويمشـى بغنمـه الطَّويلةِ المسَافَات، لا يهتمُّ بشىءٍ غيرِ الرّعْى وَالترحَال، لا يملكُ غيرَ الأغنامِ منَ المالِ، غَنىٌّ بنفسـه فقيرُ الحَال، لديهِ زوجَة وليسَ لديهِ عيَال، ينتقلُ بينَ بلدةٍ وأُخْرى، وَقرَى كبيرَة وصُغْرى، ومنَ الصحرَاء الجردَاء، إلـى أرض الرعْى والمَاء، كانَ يحبُّ الصيـدَ ومغامرَاته، وكانتْ تلكَ أهـمُّ هوَايَاته، وبخاصّة صيْدُ الظبَاء والغزَال، وصَيدُ الحمَام واليمَام، وكانَ هُدوء غنمهِ وإلْفهَا، يعطيهِ الفرصَة لينفذَ هوايتهُ ويمارسـهَا، ويُشعلُ نارهُ ويشوِى مَا يَصْطاده، ويأكلُ ويشربُ فِى أمَان وهوَادَة، ومَا كانـتْ تفوتهُ فرصَةٌ فِى أىِّ وقتٍ يمرُّ عليهِ إلاَّ وينتهزهَا، ويخرجُ سـهامهُ ونبالهُ، ليرمِىَ بهَا عَلى مَا يحـبُّ أنْ يكونَ له طعامًا جميلاً بعدَ مُتعة صَيْده، وفنِّ اقتناصه، وذلكَ بشرطيْن :

الأول : أنْ لاَ يُؤثر ذلكَ عَلى أمْن غنمهِ وهدوئهِ وسَلامته .

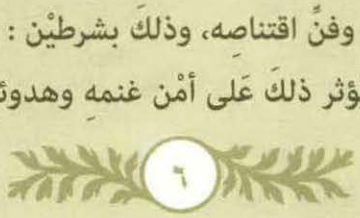

الثانى : أنْ لا يُؤثر ذلكَ على طعَام أغنامه، وَتوفيرِ غذائهَا ورعَاية شئونهَا، والبحْث عنْ مكانٍ تجدُ فيه طعامهَا وخدمتهَا .

وهذه الحالُ هىَ حالُ الكثير منْ عربِ الصَّحراء، الذينَ يعيشونَ بداخلهَا، لاَ يرتبطونَ بمُجتمع وَلا تجمُّع، وَلاَ يخضعونَ لقانُون يربطُهم، يأخذُهم السعىُ وراءَ الرعْى لأغنامِهم والبحثُ عنِ الكلأ، إلى أماكنَ كثيرَة سَهْلة أحيانًا ووعرَة أحيانًا، غزيرَةُ النبات، ووفيرةُ الماءِ أحيانًا، وفقيرةٌ مُعدمةٌ جرداء لا نباتَ فيهَا ولا مَاء أحيانًا أُخرى . .

انتقلتْ بهذَا الرَّاعى أغنامُهُ، وهىَ تطلبُ العشبَ إلى قُرب مكانِ الذئبِ الضَّارى، الذى جَاءتهُ الأقدارُ بمَا لا تهوَى نفسُه، فقدْ أصبحَ حزينًا عَلى أُسرَته، مُفتقرًا إلى الطعَام، بعدَ خُلُو الوَادى منْ سَاكنيه، وكانَ الرَّاعى وغيرُه لاَ يعلمونَ شيئًا عَنْ أسرةِ الذئابِ التى تسكنُ فى الوادى، واقتربَ الراعى منَ الدخولِ، ولكنْ غَرُبت الشمسُ وحلَّ الظلامُ، وحالَ غُروبُ الشمسِ بينَ الأغنامِ، وبينَ أعشَاب الوادى وَنبَاته .

وكانَ الرَّاعى منْ عَادته أَنْ يبيتَ فى المكَان الذى تغربُ عليه فيه الشمسُ، حرصًا عَلى سَلامة غَنَمه، وخوفًا منَ السباعِ المفترسَة أنْ تطاردهَا أو تأكلُ منهَا شيئًا .

كمَا يهتمُّ بتأمينِ المكانِ الذى تقتربُ الشمسُ منَ الغروبِ عليه فيـه، عَلى أنْ يختارَ لهَا الموقعَ الذى يطمئـنُّ أنْ لاَ يَأتى إليهَا منهُ ضَرَر، كأنْ تكونَ فِى وسـطه حتَّى إنْ جاءهَا أىُّ حيوانٍ تراهُ وتشعرُ به، نفرتْ منهُ فيستَطيعُ أنْ يحولَ بينهَا وبينهُ، برمْيه بالسِّهام وقتاله بالنِّبَال .

كمَـا أنَّ لديْـه مَهَارة وخبرةٌ فـى اختْيار المكَان الـذى يتوارَى خلفهُ ليكونَ لهَا سَـاترٌ يصعـبُ عَلى الذئابِ أنْ تصـلَ إلى غنمه منـهُ، وَاختيار المكانِ الـذى لا يظهرُ لهَا فيه ظـلٌّ، ويظهرُ للقادم ظلٌّ فِى ضوءِ القمرِ، فيسـتطيعُ أنْ يراهُ بسُهولةٍ دونَ رُؤيته للرَّاعى وَلاَ لغنمه .

وبهـذه الطريقَة بـاتَ الرَّاعى وَغنمـهُ دونَ أذًى منْ أحد، حتَّى أشـرق ضوءُ الشـمسِ عَلى الكونِ، وخرجَ عَلى الدنيَـا يومٌ جديدٌ. وصَلت فيه أقدامُ الراعى وَأغنامهُ إلى مكانِ الذئبِ، وكلاَ الإثنيْنِ له أمانيه الخاصة به .

فالراعـى يرجُو أنْ تلوذَ أغنامهُ بمَا لذَّ وطابَ لهَا منَ الحشـائشِ والنباتات، ويتمنَّـى الدخُول فِى بطْن الـوادى لجماله وكثرة مائه، ويرجُو أنْ لاَ تكونَ فيـه حيوَانات أُخرى تُزَاحمُهم، أو تنغِّصُ عَليْهم طِيبَ عَيْشهم، وهَنَائهم بمتْعَة المَكَان .

وأمَّـا الذئبُ فيتمنَّى أنْ تدخلَ الـوادى أىُّ أنواعٍ منَ الحيواناتِ التـى يحـبُ أنْ يأكلهَا، وخاصَّة إذَا كانتْ أغناما سـمينةً مثل أغنَام الرَّاعى . . الضأنُ الذى يحبهُ الذئبُ، ويهوَى أكلَ السمينِ منهُ . .

وبينمَـا الراعـى يَهُـشُّ غنمـهُ ليجمعهَا ويـزجَّ بهَا فـى فُوّهة الـوادى، إذْ رآهُ جماعـةٌ مـنَ النـاسِ، كانُـوا يمـرونَ بالطريـقِ المحيط بالوادى، وهُمْ يقطنـونَ بالقربِ منهُ، ويعلمونَ مَا فيه منَ الخطورَة والهلاكِ، فأسـرعُوا إليه ينـادونَ : يَا رجُل توقَّفْ !! توقَّفْ يَا رجُل . .

فسـمعَهُم الراعى فظنَّ أنُهم يريـدُونَ بهِ أذىً، إمَّـا أنْ يقتلوهُ وإمَّا أنْ يسـرقُوا منهُ غنمهُ، فأسرعَ إلى جمْع سهامهِ وتجهيز نفسهِ لموَاجَهتهم .

فقالُـوا لهُ : تمهّل يَا أخَا العرب ! فمَـا نُريد بكَ ولاَ بغنمكَ أذًى أو شرًّا، فاهْدأ وَقَرَّ عينًا ولاَ تخفْ .

فقالَ : لنْ تنالُوا منىَّ إنْ كذبتُمْ شـيئًا، فلسـتُ بالرجلِ السّـهلِ أو الهيِّن ؟

فقالُوا : لنْ ينالكَ منَّا أذىً، فإنمَا جئنَا لننصحكَ إنْ شـئتَ، فنحنُ أعلمُ منكَ بالمَكانِ، وإنْ شئتَ رجعْنَا . .

فقالَ : فأعطُونى العهدَ عَلى ذلكَ .

فقالُوا : بــلْ نريدُ نحنُ منكَ الأمَانَ والعهــدَ، فمَا جئناكَ لنضركَ فِى شىءٍ . .

فقالَ : لكُم الأمانُ والعهدُ .

فنزلُوا إليهِ وســلَّمُوا، وأقبلُوا عليهِ قائلينَ : يبدُو أنكَ غريبٌ عَنْ هذَا المكَانِ ؟

فقالَ : نعمْ، فكلنَا غُرباء عَلى الأرضِ فهىَ ملكٌ لله وحدهُ .

قالُوا : نعمْ ولكننَا نســألكَ عنِ السَّــكنِ، فهلْ أنتْ منْ أهلِ هذَا المكانِ ؟

فقــالَ : لاَ ، بــلْ وَطئتْ أقدَامى هذَا المــكانَ لأولِ مرَّةٍ، فلماذَا تسألُوننى عَنْ هذَا ؟ هلْ أنتمْ الذينَ تملكونهُ ؟

قالُوا : لاَ، بلْ نسألكَ لأنكَ لو كنتَ منْ سُكان المكانِ، لمَا خاطرْتَ بنفسكَ وغنمكَ ودخلتَ سَاحتهُ .

قالَ : ومَا المخَاطرةُ فى دخُولى بغنمِى فى هذَا الوادِى ؟

قالُوا : إنهُ وادٍ جدٌّ خَطير، فإنَّ دَاخلَه مَفْقود، والخَارجَ منهُ مولُود، مَنْ يدخلهُ يَهْلك، وإن سلكَ أىَّ مسلكٍ . .

قالَ الرَّاعى : ولماذَا ؟

قالُــوا : إننَا نعلمُ أنَّ مَا فِى هذَا الــوادِى أكثر منكَ، فرغمَ مَا به مــنَ الخيرَات وَالزرُوعِ وَالنباتاتِ والأشــجارِ والمَــاء الوفيرِ، إلاَّ أنهُ

حقًا جِـدٌّ خَطير، فإنهُ مَلئ بمجموعَةٍ منَ الذئابِ، نالنَا منُهم الكثيرُ مـنَ العذابِ، وَكنْ واثقًا بنَا أننَا ننصحكَ لمنفعتكَ، فقدْ أخذتْ تلكَ الذئـابُ الكثيرَ منْ حيواناتنَا التى غفلنَا عنهَا، وأحيانًا التى لمْ نغفلْ عنهَا، ويختطفهَا الذئابُ منْ بيـنِ أيدينَا، رغمَ حمايتنَا لهَا ورعايتنَا إيَّاهَا . .

فقالَ الراعى : فبمَا تُشيرونَ علىَّ ؟

قالُـوا : أنْ لا تدخلَ الوادى وأنْ تسـارعَ بالخُـرُوج منهُ بغنمكَ، فقالَ الرَّاعى: أشـكركُم عَلى هَـذه النصيحَة الغَالية، ولكنْ يجب أنْ أخبرَكُمْ بشىء، لقدْ تعرضتُ كثيرًا لمطَاردَة الذئابِ، ومَا اسْتطاعَ أىُّ حيوانٍ مُفترسٍ أنْ يأخذَ منىَّ غنمةً واحدةً . .

كمَـا أحبُّ المخَاطرةَ والمغامرةَ، فأنَا قويٌّ وذكىٌّ، وأسـتطيعُ أنْ أحمىَ متَاعى وأحرسُـهُ وأحمىَ أغنامى، وأمنعُ عنهَا أىَّ ضُر يلحقهَا، فإنْ كانَ الذئبُ قويًّا وسريعًا، فإنَّ سِهَامى أقوَى وأسرَعَ .

قالُوا : يَا أخَا العـربِ ليسَ بالوَادى ذئبٌ واحدٌ، بلْ ذئابٌ كثيرةٌ، قويةٌ وماهرةٌ بالصَّيد والمطاردَة، فهوَ قطيعٌ شـرسٌ لدرجَةٍ أنَّ بعضًا منَ الناسِ ممَنْ يسكنُ قريبًا منهُ تركُوا مسَاكنهم، خوفًا عَلى أنفسهم منَ الذئابِ، لأنهمُ يطـاردُونَ كلَّ مَا يُؤكلُ حتىّ الطيورَ والزواحفَ، ومَا نظـنُّ حيوَانًا يعيشُ فِـى الوادى الآنَ غيرُهـم، ومَا يجبُ علينَا

نحوكَ فعلناهُ، والأمرُ لكَ فافعلْ مَا شئتَ، وتركوهُ وانصرفُوا .

وظـلَّ الراعِى يُفكـر فيمَا قالُـوه، وَانتهَى بتفكيرهِ إلى شـيْئيْن هَامَّيْنِ :

الأول : أنـهُ لـنْ يتراجعَ عـنْ دخُوله الوادِى رغمَ مَـا قالُوه له، قائلاً لنفسـه : إنهُمْ لاَ يعلمـونَ قُوّتى ومهَارتى، وأنَا أحبُّ المقَاتلةَ والدفـاعَ، وإنْ كانَ عدُوى شـديدُ الكيدِ والحيطَة، سَـوَاء أكانَ منَ البشَـر أوْ منَ السـبَاع، وكَمْ تعرضتُ لهجُوم الذئـابِ، فليسَ الأمرُ عَلىَّ بجَديدٍ .

الثانـى : لقدْ بادرهُ عقلهُ بسـؤالٍ : ومَا مصلحةُ هؤلاَء النَاسِ منْ عَدَم دخُولى الوادِى، إنمَا لتفوزَ بحشائشه أغنامُهم وبهائمُهُم، ولكنْ أتأكدَ منْ صدْقهم أَوْ كَذبهم، سـأبيتُ الليلةَ عَلى فوّهةِ الوَادى، فإنْ كانَ هنـاكَ منْ خطرٍ كنتُ بعيدًا عنهُ وأسـتطيعُ الفرارَ والهربَ منهُ أو المواجهَـةَ وَالدِّفاع . وَإنْ لمْ يكنْ هناكَ خطرٌ تأكدتُّ منْ كَذبهم، ودخلتُ الوادِى ليهنأَ بمَا فيهِ أغنَامِى .

وباتَ الرجلُ مُتجهزًا وعَلى أُهْبة الاستعدَاد ينتظرُ هجومَ السباعِ عَلى غَنَمه، ولكنَّ الجميعَ لاَ يعلمُ مَا كانَ منْ مصيرِ الذئابِ، وأنهُ لمْ يبْقَ غيرُ ذلكَ الذئبِ، الذِى أقعدهُ الجوعُ عَنْ تَركِ الوَادِى إلى غيرهِ، كمَا أنَّ الذئبَ لمْ يشعرُ بالرَّاعِى ولمْ يخرجْ ليواجهَهُ .

وهذَا مَا أكدَ ظنّ الراعى أنَّ مَنْ نصحهُ خَانه، وأنهُ لم يجدْ شـيئًا ممَّـا قالوهُ صِدقًا، حتَّى أصبحَ عليهِ الصباحُ، فعزمَ عَلى الدخولِ إلى الوادى .

وبينمَا الرَّاعى يجمعُ شَـتَات غنمهِ ليدخلَ الوَادى، إذَا بهِ يسمعُ صوتًا ينادى عليْه منْ بعيد، هـوَ نفسُ الصوتِ الذى ناداهُ البارحَة، قائلاً لهُ: توقّفْ يَا رَجُل توقّف، وإلاَّ سَتَهلك أنتَ وغنمكَ . .

فالتفـتَ الرَّاعى، فوجدَ الرجالَ الذيـنَ نصحوهُ بالأمسِ هُمْ هُمْ، فتوقـفَ ليردَّ عليْهم كيدَهم، ويخبرَهُـم بكَذبهم، فلمَّا اقتربُوا منهُ، قالَ لهُم: مَاذَا تُريدونَ، أجئتم لخداعى مرةً أُخْرى.

قالُوا : كلاَّ ! ! لمْ نخْدعْكَ، ولمْ نكذبكَ منَ الكلام شيئًا . .

قالَ : ألمْ تُخبرونى بأنَّ الوَادى يسكنهُ قطيعٌ منَ الذئابِ الفتَّاكة، التى لا تُبْقى وَلاَ تَذَر، وتأكلُ كلَّ مَا تجدُ . .

قالُوا : بلى . .

قالَ : فقدْ بتُّ الليلةَ ومَا رأيتُ منْ حيوانٍ طَلَّ برأسه ، عَلىَّ ولاَ عَلى غنمـى، فتيقنتُ أنكُم تُريدونَ خِدَاعى لأرحـلَ بغنمى منَ الوادى، وتفوزَ بمَا فيهِ حيوَاناتُكُم، وقدْ ظننتُ أنكُم خيرُ ناصحينَ لى .

قالُوا : يَا أخَا العرَب . . أنتَ تعلمُ أننَا نسكنُ بالقربِ منَ الوادى، وأننَا نعلمُ مَا فيهِ منْ قبلكَ، فاعلمْ أننَا لوْ أردنَا أنْ نأخذهُ لمَا انتظرنَا

حتَّـى تأتىَ أنتَ، ونمنعكَ لندخلَ نحنُ، بـلْ أخذنَاهُ منْ زمنٍ بعيدٍ، ولكننَـا نعلمُ شَـرَّ مَا فيهِ ولهَذا لمْ يُفكر أحدٌ مـنَ الدخولِ فيهِ منَّا، ولاَ منْ غيرنَا ممّن يعلمُ خَطرهُ، ومَا أردنَا إلاَّ لننصحُكَ ثانيةً فسكتَ مُقتنعًا بمَا قالُوا، فتركوهُ وانصَرفُوا . .

وظلَّ الراعِى يومـهُ فِى مُقدمةِ الوَادى يرعَى أغنامَهُ فِى فُوَّهته، يقومُ عَلى خدمتهَا، يرعاهَا ويحرسهَا، وظلَّ يفكرُ فِى أقوالهمْ، مُحَللاً كلامهُمْ، وَاقفًا عندَ سـؤالٍ حيّر لبّهُ، وأخذَ منـهُ تفكيرًا طِيلةَ اليوم وهوَ: مَا السِّرُّ فِى إصْرَارهم عَلى أنَّ بهِ خطرًا ولمْ أرَ شيئًا ؟ . .

وإذَا كانَ كلامهُم صدقًا، وقدْ لمستُ منْهم الصدقَ، ولمْ أرَ خطرًا منَ الذئابِ فِى نفْس الوقْت، إذًا فهنَاكَ سـرٌّ خَفِىٌّ، ولكنْ لاَ ينبغِى أنْ يَخْفى علىّ، فسـأبيتُ الليلةَ كسَابقتهَا، فإمَّا أنْ أرحلَ منَ الوادِى صَبيحتهَا، وإمَّا أنْ أدخلهُ وليكنْ مَا يكُنْ . .

وَالعجيبُ أنَّ الرجُل باتَ ليلتهُ ساهرًا، تنامُ عيناهُ كمَا تنامُ الذئابُ يغمـضُ عينًا ويفتحُ أخْرَى، وَالأغنامُ تتحـركُ ولاَ تخفى أصواتهَا منْ أنْ تسمعهُ أذنٌ تسكنُ الوادِى أو يُحيطُ بهِ، فضلاً عنْ أنْ تكونَ أذنُ ذئبٍ أحوجُ ما يكونُ إلى لحمهَا ليقتاتَ بهِ .

ومعَ ذلك لم يأتِ أوْ يقتربْ منَ الرجُل ولا منْ أغنامه ذئبٌ الليلَ كلَّـه، فتأكدَ الرجلُ منْ زوَال الخطَر، ونحَّـى نحوَ الممرِّ، يأخذُ رغمَ

ذلكَ الحَذر، وينظرُ خلفَ الأحجَارِ وَالشَّـجَر، يخْشَـى مكرَ السِّباع، وقدْ خافَ منَ الوادى لاَ بالرؤْيَة ولكنْ بالسَّمَاع .

ودخلَ الوادى بالفعْل جَاهزًا للحرْب ومُجهَّزًا للدفَاع، مُتوقعًا أنهُ سـيُلاقى سـربًا منَ الذئابِ وَالأُسـود، مَا لا يَجْعلهُ يعودُ بشىءٍ منْ غنمِه. خاصَّة إذَا كانتْ عصَابةٌ منَ الذئابِ مُجتمعَة . .

وشـمَّ الذئبُ رائحـةَ الأغنام، وقـدْ أذهبَ الجوعُ عنـهُ المنَام، فاتخذهَا فرصَةً وقامَ، عازمًا عَلى أنْ يتخذَ منهَا طعامًا، ورسمَ الذئبُ خُطته، وَاسْتن أسنانهُ وأخذَ حيطتهُ، وأخذَ ينظرُ منْ بعيد، فرأى منَ الأغنام العديدَ، فاشْـتاقت نفسـهُ إلى اللُّحوم، وحَرَصَ أنْ لاَ يعوى وَلاَ يـزومُ، وألقَى خلـفَ ظهره ما حلَّ به منَ الهمـوم، واتخذَ قرارَ المعركة، وسعَى منْ أقربِ مكانٍ بأخفِّ حركَة، بدونِ صوْت للمفَاجَأة والارتباك، ولضمَانِ الفوزِ بعدَ الاشتباك، ونزلَ فجأةً عليهَا فى هُجوم وشَرَاسـةَ، ولكنَّ الراعى كانَ أشدَّ حراسَةً، فألقاهُ بالوافرِ منَ السهام، وحرصَ عَلى سَلامة الأغنام .

وهنَـا أدركَ الذئـبُ أنَـهُ مقتـولٌ لاَ محالةَ، بسـهْم منْ سـهَام الرَّاعى، التى خرجتْ منْ كنانته يلقيهَا إليه بقوسـه كَالمَطَر الغزير، ولاَ يستطيعُ أنْ يواجههَا بجسْمه، ولكنْ بأسنانه، لأنهَا صَلبة وتتحمّل دفْع السِّهام وَقتَ الخطَر، وَلكنْ أنّى لهُ أنْ يتحمّل سهامًا نَازلة عليه دونَ رحْمَةَ، ولوْ تقدّم لأقبلَ عليه الموتُ سَريعًا، وَفى نفسِ الوقتِ

لـو تراجعَ وعادَ فإنَّ الموتَ فى انتظـارِه، ولكنَّ حبَّ النفسِ جعلهُ يقبـلُ التَّرَاجُعَ، بالرغـم أنَّ هذَا ليسَ منْ صفـاتِ الذئابِ، فإنَّ منْ عادتهَـا الهجُوم وَالإقـدَام، وليسَ منْ صفاتهَا التراجُعُ وَالاسْتسـلَام، ورجعَ الذئبُ يجرُّ أذيالَ الخيبةِ، فكَمْ تمنَّى أنْ يصيبَ فريسَة يقتاتُ بهَا وباتَ الذئبُ شـرَّ ليلةٍ، فلمْ يسـتطعْ أنْ يبحـثَ عنْ طعامٍ فى مكانٍ آخر، منْ شدةِ التعبِ الذى كانَ بينهُ وبينَ الراعى فإنهمَا طيلة اليومِ وَكلٌّ منهمَا يتربَّـص بالآخرِ، ولمْ يجدْ مَا يأكلهُ فى جُحره بعدَ عودتـه، فباتَ طاويًا منَ الجُوع، وَانتظـرَ الصبحَ الذى طالَ قدومُه بلهفةٍ وشـوقٍ وَاسْتعجَالٍ، وكأنَّ الصبحَ أبطأَ فى مَجيئه، ومَا هذَا إلاَّ لشـدَّةِ القلقِ والاسـتعجَال، وَقدمَ الصبحُ فى موْعـده، وجاءَ النهارُ فى ميعَاده، بعدَ طولِ انتظارِه، وأشـرقتِ الشمسُ التى سخرهَا الله تعالى لتضـىءَ هَذَا الكونَ، وتُطهِّرَ أرضهُ بأشـعتهَا القويّة، وَالذئبُ عَازم عَلى أمْريْنِ :

الأول : الموتُ الشـريفُ فإنَّ موتَهُ وهوَ يُقاتلُ ليعيشَ خيرًا منْ أنْ يموتَ منَ الجوعِ ميتَة القويِّ من الشجعَان.

الثانـى : أنْ يأخذَ غنمَـةً يقتاتُ بهَا فقدْ خلقـهُ الله تعالى بهذهِ الطَّبيعة، فلاَ يستطيعُ أنْ يعيشَ منْ غيرِ أنْ يَفْترسَ، أوْ أنْ يقتنـصَ مَـا يأكلهُ؛ لأنهُ مـنَ الحيوَاناتِ آكلـةِ اللحُوم. وهذانِ

الأمران جعلاَ الذئبَ يتخذُ القرارَ النهَائى، سَـواء كانَ فيه نهَايتهُ وموتهُ، أو كانَ فيه نجاتهُ وانتصارهُ، وتقدّمَ يجْرى ناحيَة الأغنام، بشـجَاعة وإقدَام، دونَ أنْ يلتفتَ إلى الرَّاعى وَلاَ إلى سـهامه، وكأنهُ لا سـهَام لهُ أو لمْ يكنْ موجودًا أصلاً، ولمْ يشـعر الذئبُ بخـوفٍ، ولمْ يضعْ فى خَاطره تفكيرًا، سـوَى المهَارة فى كيفيّة الاقتنـاص منَ الأغنام، مَا لذَّ طعمُهُ، وكثـرَ لحمُهُ، وَلاَنَ عظمهُ، مُسـتعينًا بالله، الذى يجيـبُ المضطرَّ إذَا دعَـاهُ، وقدْ تحقّقَ الغرضُ ووجـدَ الذئبُ بينَ الأغنـام مأربَهُ، وتحقـقَ لهُ رجاؤُهُ ومطلبـهُ، فقد اقتربَ منَ الغنمة، واسـتطاعَ أنْ يقتنصهَا، وهىَ بينَ الأغنام أسمنهَا.

والجديـرُ بالذكر أنَّ الأغنامَ لمْ تكنْ مَاهرة فى الجرْى والهروب، وَلاَ فى الاختفاء إذَا حَانت الخطوبُ؛ لأنهَا كانتْ سَمينةً وثقيلةً، فقدْ كانَ شُغْلُ الرَّاعى الشاغلُ أنْ يُوَفر لهَا الأمانَ والطعامَ، بوفرة وكثافة، فلـمْ تُطارد قبلَ ذلكَ منْ ذئبٍ ولاَ منْ أسـدٍ، ولمْ يُزعجهَا منْ أمنهَا قبلَ ذلكَ منَ الذئابِ أحَد، وهَذا مَا سهّل عَلى الذئبِ مُهمته، فتجرَّأَ أكثرَ وأعادَ لنفسه هيبتهُ .

وخالـفَ الذئبُ قولَ القائل : وليـسَ كلُّ مَا يرجوهُ المرءُ يدركهُ، فقدْ أدركَ الذئبُ مَا تمناهُ ، وإنْ كانَ هذَا سـيهلكهُ، فقدَّمَ بعَزيمته كلَّ مَا يملكهُ .

والغريبُ أنَّ سـهَام الرَّاعى كانتْ تأتيـه دونَ أنْ تُصيبهُ، وقوتهَا لمْ تكنْ لتخيفَهُ، وَالأغنامُ تجرِى مذعُورةً، مُتشـتتةً مقهورةً، والذئبُ يَعوِى بصوتٍ قَوى كالبركَان، جلجلَ وزلزلَ المكَان، وكانَ بقُربه إليهَا أنشـطُ، وخُطته ليقتنصهَا أحوطُ، وحانَ وقتُ الحسْـم، ولمْ يصبْ جسـدَهُ سهمٌ، مُستعينًا بالله أنْ يطعمهُ غنمةً، لأنهَا خلقٌ منْ خلقه، ونعمةٌ منْ نعمه، فاسـتجابَ الله دعوتهُ، وسهّل لهُ مُهمته، واقتنصَ الذئبُ بينَ يديْه أسمنهَا، وَتنحَّى ليبتعدَ بهَا بعيدًا .

وتركَ الرَّاعى بَاقى القطيع وَأهملهُ، وتبعَ الذئبَ ليقتلهُ، والذئبُ تثقـلُ الغنمةُ كَاهلَـهُ، وتبْطئُ حَركته، فنجحَ الراعـى فِى أَنْ يُضيقَ عَلى الذئبِ الخنَاق، والذئبُ يشـعرُ أنهُ فِى انطلاقٍ، والرَّاعى شديدُ الحرصِ عَلى أنْ يسـتنقذهَا منَ الذئبِ، والذئبُ أشدُّ حرصًا عَلى أنْ ييأسَ منْ مُطَاردتهِ الرَّاعى فيعجزُ عنِ اسـتنقاذهَا، فيخلُو بهَا الذئبُ وَيأكلهَا.

ولكـنَّ الراعِى كانَ أقوَى منَ الذئبِ، وأشـدَّ ذكاءً منهُ، بمَا فضلهُ الله تعالى وكرمهُ بعقله، فاسْتطاعَ أَنْ يأخذهَا منَ الذئبِ، وسقطتْ منْ فمِ الذئبِ ليخطفهَا الرَّاعى بشـدّةٍ، فالتفتَ إليه الذئبُ بغضَبٍ وَحدّة، وقالَ لهُ بلسانٍ شديدِ اللَّهجةِ، عَابس الهيئةِ.

«هنَا استنقذتهَا منِّى فَمَنْ لهَا يوم السبْع يومٌ لاَ راعى لهَا غيرى؟».

فقالَ الراعى: ما هذا.

وانصرفَ الذئـبُ حزينًا، وليسَ لهُ غيرُ اللـه مُعينًا، فقدْ كانتِ الغنمـةُ بينَ فكيَّه، رزقًا سـاقهُ اللـه إليه، وَالله يعلـمُ مَا حلَّ به، وَالذئبُ يطلبُ رحمةَ ربِّه، وتركَ الوادى يبحثُ عنْ رزقٍ فِى مكانٍ غيره .

ولكـنَّ الراعى منذُ أنْ تعجّبَ منْ ثبـاتِ الذئبِ وجُرْأته، فلمْ يَرَ مثلَهُ منذُ نشأته، أخذتهُ منَ الدنيَا الدهشةُ، لكلام الذئبِ وَتجشُّمه، وكلامـه الذى يحوى الكثيرَ منَ العبَر، ومَا يكونُ منْ عجبٍ لكلِّ منْ يسـمعُ الخبرَ، فحبسَ الفكرُ عقلهُ فى عَالم التيه، وَنسـىَ مَا ذهبَ عنـهُ ومَا يأتيه، فقدْ كلمهُ الحيـوانُ الأبكمُ، بعتابِ حَقٍّ وَتهكُّم، منْ إصْرارِ الرَّاعى وَاسْتكباره، بعدَ نجاةِ الذئبِ وَإدبَاره. إنهُ موقفٌ يعجزُ عَـنْ وصْفه الكَلَام، وهوَ مَا أذهبَ عـنْ عَيْنى الراعى المنَام، وألزمهُ بيتـهُ، وحبسَ الرجلُ غنمهُ فى خيمتهَا، وظلَّ هوَ فى بيته غَارقًا فى التفكيرِ وَالسّـهَاد، لا يشربُ ولا يذوقُ طعمَ زاد، يَستخرجُ منْ كَلام الذئـبِ العبرَةَ، والمواقـف النيِّرَة، فأخذهُ منْ أجْـل هذَا منَ النوم السَّهرُ، والكلامُ ببلاغةِ وفصاحةِ بنصٍّ عَرَبى منْ كَلام العرَب، ومَا حيَّرهُ

بشدَّةٍ مَا يعنيه الذئبُ ومَا يقصدُه، خاصّة قولُهُ «يومَ السَّبْع»[1] فإنهُ لا يفهـمُ معناهَا، فكيفَ يعلمُ الذئـبُ معناهَا وهو حيوانٌ والرَّاعى إنسَـان ؟!. وقدْ أعقبَ هذَا فى نفسـه ضيقًا شديدًا، جعلهُ محبوسًا تحتَ لسـانه، فانتهَى أخيرًا إلى أَنْ يسـتخرجَ منَ النصِّ مَا يستطيعُ فهمهُ بنفسه، ويسألُ غيرَهُ فيمَا لا يعلمُ .

وكانَ ممَّا أدهش الرَّاعى منْ معانى :

١ - مُعْجزةُ كلام الذئبِ بلسَان فصيح، وهوَ الحيوانُ الأبكمُ، لا ينطقُ ولا يتكلّـم، وإنمَا يعوى بصوتٍ غير مفْهوم، ولاَ يفهمُ الإنسـانُ قصدَ الذئبِ منْ ذلكَ العُوَاء، فنطقهُ وفصاحتهُ بمَا يفهمُ معناهُ، وهوَ يَعنيه بقصْده وفحْوَاه، فهىَ آيةٌ كُبرى بلاَ شكّ .

٢ - نطقَ الذئبُ باللغةِ العربيّة[2]، أُمِّ اللغاتِ، بفصَاحة وبلاغةِ أهلِ اللغةِ منْ بَنى البشرِ.

٣ - التفاتُ الذئبِ إليه بوجْهِ، مُتوجهًا بالخطَاب لهُ، وهذَا منْ آدابِ الحديثِ وأهميته، بلْ وشـروطهُ عندَ العقلاءِ منَ البشـرِ، وهوَ معْجزة بالنسبَةِ للحيوانِ .

---

(١) هذه الكلمة لها معان كثيرة عند المفسـرين أقربها المعنى الذى اخترته فى السـياق كما سيأتى.

(٢) وهى لغة القرآن الكريم، ولغة أهل الجنة، ولغة العرب.

٤ - نظـرَ الذئبُ إليـه بوجْهه عبُوسٍ وَكئيب، ممَّا يـدلُّ عَلى حزنه وكبير همِّه، وهذَا الفعلُ يصدرُ عنْ أيِّ إنسـانٍ أمسكَ بطعامه، فجـاءهُ مَنْ يقاتلهُ عليه، ليأخذَ منهُ رزقهُ، واسْـتطاعَ أنْ يأخذهُ منـهُ فعلاً، فهوَ حـالٌ مؤلمٌ حقًّا، خاصّةً حينمَـا يجلسُ بالجوعِ الذِى كانَ يُعَانى منهُ منْ قبلُ.

٥ - احمـرارُ وجه الذئـبِ وَعينيْه، ممَّا يُوحى ببـركَان منَ الغضبِ والسـخطِ اللَّذيْنِ لحقَا بـه، حينمَا أخذَ الرَّاعى منـهُ ومنْ بيْنِ أسنانه الغنمةَ، التى كانَ يقابلُ منْ أجلهَا السهامَ القاتلةَ، وجعلهَا مُقابل حَيَاته .

٦ - وقوفُ الذئبِ فى مكانه للمنَاقشـة وَالحوار، ليوقعَ الخطأَ عَلى الرَّاعـى، ويثبتَ لهُ خطأهُ فِى حقه - إن كانَ طالبًا للحقِّ وَعَادلاً - فِى جُرأة وثبات صَاحب الحقِّ.

٧ - الغيظُ الشديدُ منَ استنقاذه الرَّاعى للغنمة، فقدْ خسرَ المعركةَ، والهزيمـةَ لا يقبلهَا مَخْلوق، خاصّة إذَا كانَ يَرَى نفسَـه صَاحب حَقٍّ، ممَّا يدلُّ عَلى إحسَاس الحيوان.

٨ - اعتراضُ الذئبِ بوجْه حقٍّ، وليسَ بالبَاطل، فقدْ هجمَ كلٌّ منهمَا عَلى الآخـرِ وكانَ كلٌّ منهمَا حريصٌ عَلى قَتْـلِ الآخرِ . . الرَّاعى حريـصٌ عَلى أنْ يقتلَ الذئبَ أوْ أنْ يسـتنقذَ منهُ الشـاةَ عَلَى

الأقلّ.. والذئـب حريصٌ عَلى أَنْ يأخذَ طعامـهُ وإنْ كلّفهُ ذلكَ أنْ يقتـلَ الرَّاعى . . وَاسـتطاعَ الذئبُ أنْ ينتصـرَ عَلى الرَّاعى، وأَنْ يأخـذَ منْ أغنامِهِ واحدةً ويهربَ بهَـا، ولولاَ احتياجُه إليهَا مَا فعلَ .

٩ - معرفةُ الذئب بشـيءٍ غَريب لمْ يكنْ يعلمهُ الرَّاعى، فقدْ نطقَ الذئبُ بشـيءٍ منَ المسـتقبلِ، ولاَ يعلمُ الغيبَ إلاَّ الله تعالَى، ففى قوله : يومُ السَّبْع : يدلُّ عَلى أنهُ يعلمُ هذَا اليوم وأنَّ الرَّاعى لا يعلمهُ أو يعرفهُ، وهوَ إثباتُ أنَّ الذى أنطقهُ هُوَ الله تعالى .

١٠ - العقلانيةُ فِى كلامِ الذئبِ، وَالإقناعُ فِى نصِّهِ لمنْ قيلَ لهُ، ومنْ يسمعهُ .

١١ - العدلُ والوسطيَّةُ منْ قَاعدة «لا ضررَ ولاَ ضِرار» فِى كلام الذئبِ، فالغنمةُ رزقهُ وقدّر الله تعالى لهُ أنْ يأخذهَا، وإلاَّ أصابتهُ سِهَام الرَّاعى منْ أوَّل وهلةٍ، تقدّمَ فيهَا إلى الأغنام، وَالغنمُ ملكٌ لله تعالىَ أَصْلا، وَالرَّاعى مُسْـتخلف فيـهِ، فلمْ يَخْلقها أو يُوجدها منَ العدم.

١٢ - رضَـا الذئب بمَا خلقهُ الله تعالى عليه، وَانتماؤُهُ إلى جنسـهِ وطبيعتهِ، ونوعِه وفَصيلته، فهوَ منَ اللواحمِ التى تتغذَّى عَلى اللحمِ، وَالضَّانِ غذاءً لهُ .

١٣ - معرفةُ الذئبِ أنَّ الراعى هوَ المالكُ لهَا والحارسُ، وأنهُ حريصٌ عَلى أنَّ القدرَ فوقَ إرادةِ المخْلُوقينَ .

أَمَّا كلمةُ «يوم السبْع» فقدْ ظلَّ الرَّاعى لاَ يدْرِى لهَا معْنىً، فعزمَ عَلى أنْ يبحثَ عنْ أحدٍ يمكنُ أنْ يفسرهَا لَهُ.

ومـرَّت عليهِ أيـامٌ كثيرةٌ، ولمْ يـأتِ القدرُ إليهِ بمنْ يُفسـرُ لهُ المقصُود منْ كلامِ الذئبِ بيوْم السبعِ أوْ يلتقى بالذئبِ لعَلهُ يخبرهُ عنْ قصْده، فربمَا فسّر لهُ مَا قصدهُ منهَا .

وذاتَ يـوم خـرجَ الرَّاعى، والكلمـةُ لاتزالُ تـردُ فِى أذنهِ بصوتِ الذئـبِ، متذكرًا هَيْئته، وبينمَا هـوَ فِى طريقهِ، اقتربَ بهِ طلبُ الرعْى إلى مَغَارة، يسـكنهَا رجلٌ منَ العبّاد، فاستأذنَ عليهِ ودخَل ليحْكى له قصَّتهُ معَ الذئبِ ويسألهُ عنْ معنَى كلامِ الذئبِ لهُ.

فقالَ لهُ الرجلُ : يَا وَلَدى إنَّ كلاَم البهَائم مُعْجزة منَ المعجزَات الخَارقـة للعَادة، التى لا تحـدثُ إلاَّ عَلى أيدِى الأنبياء والرُّسُـل أوْ غيرهـمْ بإذن الله تعَالـى، ومَا حدث لكَ فهوَ حـقٌّ، ومَا قالهُ لكَ الذئبُ صِدْق، ومعْنَى قولُهُ : يوم السـبع «يومٌ مَا تموتُ فيه، وتكونُ الأغنـامُ بـلاَ رَاعٍ ولاَ حَارس، فيكونُ الذئـبُ رَاعيهَا ولهُ أنْ يأكلَ منهَا مَا شَـاء، وهَذا مَا أعلمُ يَـا بُنَىَّ، وربمَا لهَا معَانٍ أخْرى.

وهذَا المعنَى أقرب .

وأهمُّ مَا أقولهُ لكَ فِى النهايةِ : أنَّ الله تعالى قادرٌ عَلى أَنْ يجعلَ الحيوانَ ينطقُ ويتكلمُ كالإنسانِ ، فالله عَلى كلِّ شىءٍ قديرٍ . .

***

رقم الإيداع	٢٠١٣ / ٤٣٦٢
الترقيم الدولى	ISBN 978-977-02-7762-1

١٥ / ٢٠١٣ / ٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)